مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

أدب الترسّل وتداخل الأجناس

Literary literature and the interplay of literary genres

أ . مريم زنور
Marianour1985.43@gmail.com
جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة

تاريخ الإرسال: 15ـ12ـ2018 تاريخ القبول :16ـ09ـ2019

الملخص:

تعدّ قضية نقاء الأجناس وتداخلها من أهمّ القضايا التي خاضت فيها الشعرية الغربية منذ أرسطو إلى نقاد الحداثة وما بعدها، وقد تراوحت الآراء النقدية بين مؤيد لمبدأ الصفاء والنقاء واضعا بذلك جدارا عازلا بين الجنس الأدبي والآخر يستحيل معه الالتقاء والتقاطع، وبين مؤيّد لمبدأ التداخل والتمازج، معتبرا مبدأ الفصل بين الأجناس ضربا من الخيال يرفضه واقع التجربة الإبداعية ذاتها. وبذلك لم تعد الأجناس الأدبية وفق هذا التصور قوالب جامدة ذات سمات نهائية ثابتة وإنّما هي في حركية دائمة وتغيّر مستمر.

ولعل العديد من الدارسين يعتقد أنّ تداخل الأجناس الأدبية ظاهرة معاصرة ظهرت استجابة لمتطلبات الحداثة والتجريب، فجاءت هذه الدراسة الموسومة بـــ "أدب الترسل وتداخل الأجناس" في محاولة لتقصي جذور هذه الظاهرة في الأدب العربي القديم لاسيما في النص الترسلي الذي عرف تطورا كبيرا في العصور الأدبية الزاهرة.

الكلمات المفتاحية: الجنس الأدبي، نظرية الأجناس الأدبية، تداخل الأجناس الأدبية، فن الترسل .

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

Abstract:

The purity and interaction of different types of literary is reckoned to be one of the most important issues in the western poetry since the era of Aristotle to the time of modern critics.

The critical perceptions in relation to the principle of purity was so varied that a huge separation emerged between one type of poetry and another .The principle of separation in terms of interaction and immersion is nothing but a fantasy resulting from true experience itself.

According to this perception, literary types (stories and novels) are not of static from with definitive characteristics, but they are of constant kinetic and continuous change.

The Arabic letter is considered as one of the most responding text to this principle like we are going to illustrate through this research paper.

Keywords: Literary type- Interaction – letter.

المقدمة:

يعدّ أدب الترسل من أهمّ أجناس الكلام في الأدب العربي القديم، وقد عرف تطورا وازدهارا كبيرين خلال العصرين الأموي والعباسي، فخاض في موضوعات لم يكن له قبل بها، وتفنن الكتاب في إبداع رسائل كانت معرضا لتداخل الأجناس وتفاعلها، والجدير بالذكر أنّ الدرس النقدي العربي المعاصر اقتصرت بحوثه في هذا المجال على الأجناس الأدبية المعاصرة لاسيما الرواية على غرار ما قدّم في مؤتمر النقد الثاني عشر بالأردن الذي تمحورت أغلب مداخلاته حول التفاعل الحاصل بين الرواية وسائر الأجناس الأخرى، معتبرة هذه الظاهرة من نتائج مفهوم الحداثة والتجريب، إلاّ المتمعن في واقع الأدب العربي القديم يدرك أنّ للظاهرة جذورا ترجع إلى عصور الأدب المتقدمة، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة في محاولة للإجابة عن الإشكال الآتي:

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

ما هي أشكال التداخل بين الأجناس في الأدب العربي القديم ؟ ما مدى استجابة النص الترسلي القديم لمبدأ التداخل بين الأجناس ؟ وما أبرز الأجناس التي تقاطع معها فن الرسالة؟

1- الجنس الأدبي – المفهوم والتاريخ –:

يعدّ الجنس الأدبي من المصطلحات التي قدّمت لها تعاريف عديدة في محاولة للإحاطة بمدلولها وضبط ماهيتها، ولعل التعريف اللغوي من أهم العتبات التي يمرّ بها المصطلح قبل وضع حدّ اصطلاحي له، وقد عرّف الجنس لغة على أنّه "الضرب من الشيء أو الضرب من كل شيء (...) من الناس ومن الطير ومن حدود النحو والعروض والأشياء جملة"[1]، فالجنس معيار لتصنيف الأشياء والموجودات للعاقل ولغير العاقل، للمادي وللمعنوي، ولعل المعن المستفاد عن طريق الاشتقاق هو التجانس والمجانسة أي التشابه أو المماثلة، فقولنا هذا الشيء من جنس ذاك يجعلنا نحكم على وجود قاسم مشترك يجمع بينهما هو جوهر الشيئين معا، حتى وان افترقا في ما عداه .

أما من الناحية الاصطلاحية فعرّف لطيف زيتوني في معجمه معجم مصطلحات بقد الرواية الجنس على أنّه "اصطلاح عملي يستخدم في تصنيف أشكال الخطاب وهو يتوسط بين الأدب والأنواع الأدبية"[2]، فالأدب من المفاهيم المجردة التي لا تدخل حيز التطبيق إلا من خلال النص الذي يعد التجسد العيني لذلك المفهوم، وقد جعل زيتوني الجنس الأدب مرتبة متوسطة بين الأدب والأنواع الأدبية ما يضعنا في مواجهة مصطلح آخر من ضرورة ضبط ماهيته ومدلوله هو مصطلح النوع الذي يعتقد الكثير من

[1]– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دك، دت، مج 06، ص 43، مادة (ج ن س)

[2]– لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، دت، ص 67.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

الدارسين أنه مجرد مرادف لمصطلح الجنس مما أدى إلى استعمال المصطلحين كمترادفين ما خلق فوضى مصطلحية كبيرة، ولعل التدقيق اللغوي هو ما يجعلنا نتجاوز هذه الإشكالية ونقع على أهم الفوارق بين المصطلحين، حيث ورد في غير واحد من المعاجم العربية "الجنس الضرب من كلّ شيء، وهو أعمّ من النوع، يقال الحيوان جنس والإنسان نوع"[1]، فهذا التدقيق اللغوي من شأنه أن يبعد الباحث عن الخلط بين المصطلحين، فالجنس أعمّ من النوع ويضم عددا من الأنواع المشتركة في صفة جوهرية، والمختلفة في صفة جعلتها تتميز عن غيرها في الجنس لا في النوع . وبذلك ووفق التريف الاصطلاحي السابق وجب تصنيف المصطلحات وفق المراتب الآتية:

الأدب
↓
الجنس
↓
النوع
↓
النّص

وعيه كان الجنس الأدبي يضم مجموعة من النصوص المتفقة في جملة من الخصائص والسمات الداخلية، أصبحت معايير يحتكم إليها في تصنيف النصوص، كما أنّ في كل نص سمة فارقة تجعله يتميّز عن سائر النصوص فيضمن بذلك لنفسه تنويعا بعد تجنيسه . فالنص المنتمي إلى جنس الرواية مثلا قد يكون رواية اجتماعية أو رواية بوليسية أو ما شابه ذلك من أنواع جنس الرواية .

[1]– التهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون، دار صادر، بيروت، دط، دت، ص 223.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

عنيت الساحة النقدية الغربية بمسألة تقسيم الأدب وتصنيف منذ كتاب فن الشعر لأرسطو الذي يعدّ المنظر الأوّل لهذه المسألة من خلال تقسيم الأدب إلى ثلاثة أجناس كبرى، ملحمي وغنائي ودرامي معتمدا في ذلك على نظرية المحاكاة التي جاء بها أستاذه أفلاطون في كتابه الجمهورية، وعلى الرغم من وجود اختلاف فني بين الأجناس الثلاثة التي ذكرها أرسطو إلى أنّ المعيار الرئيس المعتمد في هذا التصنيف هو المعيار الاجتماعي، فالأجناس الادبية وفق تصور أرسطو ما هي إلا انعكاس لتقسيم طبقي صارم، فالملحمة والمأساة تخوضان في الموضوعات المتعلقة بالملوك والنبلاء، أما الكوميديا فتتناول تلك المتعلقة بحياة الطبقة الوسطى بينما يحاكي الأدب الهزلي والساخر حياة أدنى الطبقات الاجتماعية[1] .

ولعل هذا التصور الطبقي جعل إمكانية التقاطع بين الأجناس الأدبية أمرا مستبعدا، ذلك أنّه من غير اللائق أن ينطوي العمل التراجيدي الجاد الموجه إلى فئة النبلاء والملوك على مناظر كوميدية ليس من صميم اهتمام تلك الطبقة، وبذلك سيطر مبدأ صفاء الأجناس على الشعرية اليونانية التي اتخذت من كتاب فن الشعر ومرجعا لها، ما جعل الكلاسيكيين بعده يسلمون بما جاء به من تصورات نقدية على أنهما أوامر دستورية لا مجال إلى تجاوزها، وبذلك رفضوا أيّ تداخل أو تقاطع بين الأجناس الأدبية، وهو ما رفضته الرومانسية واعتبرته من المبادئ الكلاسيكية غير القادرة على الاستجابة لمتطلبات العصر ومستجداته، ما جعل مبدأ صفاء الأجناس يتعرض لهجوم نقدي صارم وصل ذروته عند الإيطالي بنيديتو كروتشيه الذي رفض تقسيم الأدب إلى أجناس، معتبرا ذلك نوعا من التحكم في حرية المبدع وتقييدا له، ذلك أنّ الأدب حسب تصوره ما هو

[1]– ينظر روينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر عادل سلامة، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، دط، 1992م، ص 327.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

إلاّ نصوص تعبّر عن عاطفة المبدع ومشاعره، ولا ضرورة إلى تقييدها أو تقعيدها وفق قوانين خاصة [1].ولعل هذا الموفق العنيف من كروتشيه ردا على غلو الكلاسكيين وتطرفهم، قد حرر الإبداع الأدبي من أيّ معايير أو قواعد تضبطه، وهو ما قد يوقعه في نوع من العشوائية فيدخل بذلك في حير الأدب كلّ نصّ يعبر عن عاطفة أو شعور .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر تيار نقدي يعرّف الجنس على أنّه المجموعة المتفقة في الصفات شأنه في ذلك شأن النوع الطبيعي، متأثرا في ذلك بنظرية التطور عند داروين، ولعل أهمّ من يمثل هذا التيار فردناند بروتنيير، الذي يرى أنّ الجنس الأدبي له وجود في الواقع كوجود النوع الطبيعي، فهو يولد وينمو ويتطور ويموت شأنه في ذلك شأن الجنس الحيواني[2] الذي يمرّ بمختلف المراحل السابقة أثناء دورته الحياتية، إلا أنّ الأجناس الأدبية الميتة من ممكن أن تكون بداية لأجناس أدبية جديدة، فالمتمعن في واقع الإبداع الأدبي يلاحظ كيف استفاد الأدب الحديث من العديد من السمات الأسلوبية التي كانت شائعة في الأدب القديم، كالملاحم وأساطير...

أمّا مع مطلع القرن العشرين ومع الثورة العلمية والمعرفية التي أحدثتها لسانيات دي سوسير صارت نظرية الأجناس من أهم المباحث النقدية والأدبية التي ناقشتها التصورات البنيوية وما بعدها، حيث ذهب عدد من النقاد أمثال تودوروف، وجيرار جينيت، ونورثروب فراي إلى ضرورة التمسك بالجنس الأدبي كمقولة نقدية تسهم في كشف أدبية النص، وقد ذهبت التصورات النقدية إلى ضرورة التسليم بإمكانية التقاطع والتداخل بين الأجناس الأدبية المختلفة شعرية ونثرية، مع ضرورة احتفاظ النص بالانتماء

[1]– ينظر إحسان اللواتي، إشكالية النوع السردي، مؤتمر النقد الثاني عشر، الأردن، مج 01، ص 42.

[2]– ينظر لا بي سي فينست، نظرية الأنواع الادبية، تر حسن عون، منشأة المعارف، الإسكندرية، دط، دت، ص35.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

إلى جنس أدبي بعينه، وقد أعتبر نقاد البنيوية انتهاك النص لمعايير جنسه والتلاقح مع معايير جنس آخر واحدا من أهم ملامح الإبداع والحداثة، غير أنّ هذا لا يلغي ضرورة الاستناد إلى معايير محددة (قواعد الجنس) في قراءة النص ونقده يقول تودوروف "لكي يكون ثمة انتهاك، فالمعيار يجب أن يكون واضحا، زد على ذلك أنّ من المشكوك فيه أنّ الأدب المعاصر معفى كليًا من الفروق الأجناسية"[1]، وهو التصور ذاته الذي يذهب إليه جيرار جينيت في كتابه مدخل لجامع النص أين اعتبر "الخطاب الأدبي ينشأ ويتطور حسب بنى لا يستطيع حتى أن يخرقها، إلاّ لأنّه يجدها اليوم في لغته وكتاباته"[2]، ولعل الخرق هنا لايراد به التداخل أو التفاعل بين الأجناس الأدبية وإنما يراد به الخروج على قواعد التجنيس التي دعا إليها كروتشيه، وحيث يرى جينيت أن النّص لا يمكنه التحقق إلاّ في إطار تجنيسي معين بذلك تكون دعوى كروتشيه باطلة بحكم واقع التجربة الإبداعية نفسها والتي تثبت أنّ مقولة الجنس الأدبي ضرورة نقدية ومنهجية .

غير أنّ العديد من نقاد ما بعد الحداثة على غرار جاك دريدا وموريس بلانشو ورولان بارت وغيرهم ممن رفض تجنيس الأدب استنادا إلى مبدأ التفكيك والخلخلة والهدم التي عملوا على تكريسها، فرفضهم لكل الثوابت والمعايير جرّ معه رفض مقولة الجنس الأدبي وتبني مبدأ الكتابة دون قيود، وتذهب مها القصراوي في مداخلتها ضمن فعاليات مؤتمر النقد الثاني عشر الموسوم بـــ تداخل الأنواع الأدبية أنّ ما يدعو إليه نقاد مابعد الحداثة من إلغاء لمقولة الجنس الأدبي ما هو إلا جزء من ثقافة الغرب في العصر

[1]– تودوروف، الأجناس الأدبية، تر نجوى الرياحي القسنطيني، المجلة العربية للثقافة، ع 28، 1995، ص 228.

[2]– جيرار جينيت، مدخل لجامع النص، تر عبد الرحمان أيوب، دار توبقال، الدار البيضاء، ط2، 1986 م، ص 71.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

الحديث القائمة على فلسفة التدمير والتشتت[1]، ومن ثم أصبحت العناية بمقولة الجنس الأدبي ضئيلة عند نقاد ما بعد الحداثة نظرا لكونها تعكس الثوابت التي ثاروا عليها .

وخلاصة القول فيما أوردناه حول تاريخ الجنس الأدبي في المدونة النقدية الغربية، أنّ مقولة الجنس الأدبي قد مرّت بعدة مراحل بدءا بمقولة النقاد والصفاء مع الشعرية الأرسطية والفكر الكلاسيكي بعدها، لتنتهي بفكرة النفي والإلغاء مع نقاد ما بعد الحداثة ويبقى أكثر الآراء قبولا ن الناحية الإبداعية والنقدية ما توسط بين الطرحين السابقين من اعتبار الجنس الأدبي من المسلمات النقدية إلاّ أنّه من المرونة ما يجعل احتمالية التداخل بينه وبين غيره من الأجناس قائمة.

لقد أثبتت العديد من الدراسات النقدية المعاصرة استحالة عزل جنس أدبي عن الآخر وهو ما جسدته أغلب النصوص الأدبية شعرية ونثرية، فالنصوص الروائية على سبيل المثال تثبت تقاطع العديد من الأجناس في متونها كالسيرة الذاتية، الشعر، المسرح وغيرها إلاّ أنّ ما همنا في هذه الورقة البحثية هو تداخل الأجناس الأدبية في الأدب العربي القديم، وما هل أشكال ذلك التقاطع وهو ما سنحاول تقصيه فيما سيأتي .

2- تداخل الأجناس الأدبية في الأدب العربي القديم:

إنّ المتصفح للمنتج الأدبي العربي القديم يقع على العديد من نماذج التقاطع بين أجناس الأدب المختلفة شعرية ونثرية سنحاول تقصي بعض نماذجه:

2–1 التداخل بين الشعر والقصة: يعدّ التداخل بين الشعر والقصة من أهمّ وأبرز مظاهر التداخل بين الأجناس وأقدمها، فكثيرا ما طالعتنا نصوص شعرية ببنية

[1]– مها القصراوي، نظرية الأنواع الأدبية في النقد الأدبي – نظرية الرواية نموذجا–، مؤتمر النقد الثاني عشر، مج 02، ص ص 731–733.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

سردية متكاملة، والعائد إلى التاريخ الشعري العربي يقع على العديد من النماذج تعكس هذا التمازج، منذ الجاهلية إلى العصر الحديث والمعاصر .

ومن ذلك ما جاء على لسان الشاعر الصعلوك تأبّط شرًا في تصوير لقاء بينه وبين الغول، وقد كانت فكرة الغول ووجوده من أكثر التصورات الشائعة في المجتمع الجاهلي، ومن ذلك قوله:

ألا من مبلغ فتيـــان فهم بما لاقيت عند رحى بطان
بأنّي قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو أيّن أخو سفر فخلي لي مكاني
فشدّت شدّة نحوي فأهوى لها كفي بمصقول يماني
فأضربها بلا دهش فخرّت صريعا لليدين وللجران
فقالت عد فقلت لها رويدا مكانك إنني ثبت الجنان
فلم أنفك متكئا لديها لأنظر مصبحا ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيح كرأس الهرّ مشقوق اللسان
وساقا مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان[1]

احتوى نص تأبّط شرًا على بنية سردية متكاملة العناصر من راو (الشاعر) ومروي له (فتيان فهم) ومروي (نص الحكاية الشعرية)، وقد مرّ المروي في هذا النّص بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: إعلان الشاعر لقاء الغول .

المرحلة الثانية: الحوار والصراع .

[1]– تأبّط شرًا، الديوان، تح علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984م، ص ص 222–227.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

المرحلة الثالثة: وصف نهاية الغول ومصرعه .

فالمسرود في هذا النص يظهر بنية سطحية تعكس لقاء شاعر صعلوك متمرد على القبيلة ونظمها، بغول في فلاة بعيدة، وقد عرض الراوي أحداث **قصته** بشكل منظم مرتبا ترتيبا منطقيا، ضمنه عنصر **الحوار** الخارجي، إضافة إلى كل من البنية الزمانية والمكانية.

أمّا البنية العميقة لهذا المسرود فتتجلى فتكشف أسطورة الغول في الفكر الجاهلي، وهو مرادف للتهلكة والهول، وفي ذلك محاولة من الشاعر الصعلوك لإظهار قوته وقدرته على العيش في الفيافي وذلك هو سرّ انفراده وتمرده وتخليه عن القبيلة التي هو في غنى عن حمايتها .

2–2 التداخل بين الشعر والخطبة:

تعدّ الخطابة من الأجناس الأدبية الموغلة في القدم، فهي جنس شفهي عرفته كلّ الآداب في زمن مبكر ومنها الأدب العربي، يسعى إلى الإقناع والتأثير العقلي في المستمع، بينما يسعى الشعر في أغلب أغراضه إلى التأثير النفسي والعاطفي، إلاّ أنّ ذلك لم يلغ إمكانية التقاطع بينهما، ولعل أبسط أشكال التداخل بين الشعر والخطبة ما جاء من باب استشهاد الخطباء بالشعر لاسيما إن كان الخطيب شاعرا، ومن أمثلة ذلك نذكر خطبة لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه– التي منها قوله:

"الحمد لله الذي بعث محمدا منّا نبيّا، وبعثه إلينا رسولا، فنحن بيت النبوة وعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب، لنا حق إن نطعه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل (...) ثم أنشأ يقول:

فإن تك جاسم هلكت فأنّي بما فعلت بنو عبد بن ضخم

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

مطيع في الهواجر كلّ عيّ بصير بالنوى من كلّ نجم[1]

فالخطيب قد يلجأ إلى المزج بين جنسين إذا اقتضت الحاجة إلى دعم رأيه على سبيل الاستشهاد أو التمثيل، ونماذج الجمع بين الشعر والنثر في النّص الخطابي كثيرة في أدبنا العربي بعصوره المختلفة. كدليل على وعي الساحة الأدبية العربية بإمكانية التداخل والتلاقح بين الأجناس الأدبية و لم يكن الأمر مرفوض من الناحية العملية ولا النظرية كم شاع في الفكر اليوناني القديم .

الأجناس الأدبية وتداخلها في النصوص الترسّلية:

قطع فن الترسّل في الأدب العربي مراحل كثيرة خلال تطوره، فبدأ شفهيا في العصر الجاهلي، يقول **أحمد زكي صفوت** "إنّ جمهرة العرب في ذلك العصر الجاهلي كانت متبدية، فلم تكن الكتابة فيهم فاشية، ولذا كانوا يعتمدون في مراسلاتهم على المشافهة، فيبعثون برسالاتهم (...) شفهية مع أبناء ينتخبونهم لإبلاغها"[2]، ومع ظهور الإسلام وإرساء قواعد الدولة الإسلامية، بدأ أدب الترسل في التطور نظرا لحاجة الخلفاء والملوك إليه كوسيلة اتصال داخلي وخارجي، فانطلق من عهد الإملاء زمن النبي – صلى الله عليه وسلّم – والخلفاء الراشدين، إلى عهد الدواوين زمن الدولتين الأموية والعباسية أين وصل فن الترسل أوج تطوره وازدهاره.

[1]– أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، مصر، ط1، 1923م، ص 36.

[2]– أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، ج1، ص 07.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

وقد أدّت العناية بهذا الفن إلى استحداث أغراض وأساليب وموضوعات لم يسبق لهذا الفن أن عرض لها، فتقاطع بذلك مع سائر أجناس الكلام الأخرى، مما خلق أشكال مختلفة من التداخل والتفاعل .

3–1 التداخل بين الرسالة والشعر:

استعان عرب الجاهلية بالشعر الذي برعوا فيه كوسيلة للاتصال والتواصل فاستعملوه في مراسلاتهم، فمن الرسائل الجاهلية ما جاء شعرا ومنها ما أورده أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب عن طرفة بن العبد

ألا أيّها الغادي تحمّل رسالة إلى خالد مـــنـــّي وإن كان نائيا
وصيّة من يهدي السلام تحية ويخبر أهل الودّ أن لا تلاقيا
خرجنا وداعي الموت فينا يقودنا وكان لنا النعمان بالسيف حاذيا[1]

ففي قول طرفة معاني ترسلية واضحة، أين احتوى النص الشعري على عناصر الرسالة من مرسل (الشاعر) ومرسل له (والذي صرّح به في المتن وهو خالد) والرسالة، ولعل لجوء العربي إلى الشعر كوسيلة للترسل راجع سرعة انتقال الشعر وسهولة حفظه في الذاكرة مقارنة بسائر أجناس الكلام الأخرى ولمكانته المرموقة في حياة وفكر العربي.

وإذا انتقلنا إلى عصر صدر الإسلام نلحظ عناية بالغة بالرسالة المكتوبة والتي دعت إليها متطلبات دينية وسياسية، متعلقة بنشر الدين الإسلامي وإرساء قواعد الدولة الإسلامية الفتيّة، والغالب في مراسلات هذه الفترة هو ظاهرة الإملاء، فلم يكن للكاتب حق التصرف في معاني الرسالة، وإنّما ينحصر دوره في تدوين ما يملى عليه لا ينقص ولا

[1] – أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، تح علي محمد البجاوي، دط، دت، ص 92.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

يزيد[1]، بينما مال الكتّاب في العصر الأموي إلى العناية بالأسلوب والتأنق في الألفاظ، فتطوّر هذا الفن وانتقل من الإملاء إلى الإنشاء، فاتساع أرجاء الدولة وتشعب أمورها ومشاغلها فرض على الأمويين ترك الحرية للكاتب فيما صياغة الرسائل، فتوّل من مجرد ناقل إلى منشئ مستقل في صياغته[2]، ليصل هذا التطور إلى ميلاد أمه شخصية نهضت بفن الترسل في الأدب العربي وهي شخصية عبد الحميد الكاتب أنبه كتاب العصر وأشهرهم.

ولما أدال الله العباسيين امتد سلطان النثر واتسعت موضوعاته وأغراضه "فبعد أن كان المدح والهجاء والرثاء أمورا لا تتجاوز الشعر طمع فيها الكتاب، فمدحوا، وهجوا، وعاتبوا رثوا، ووصفوا فأكثروا الوصف، ومن وصف أشياء لم يكن الشعر ليعرض لها"[3]، هذه القفزة النوعية التي حققها فن الترسّل في العصر العباسي، أدّت إلى إدخال أساليب وأفانين جديدة فسحت المجال للنثر لتداخل ويمتزج بسائر أجناس الكلام العربي لاسيما الشعر.

ولعلّ أوّل أشكال ذلك التداخل ما تطرق إليه طه حسين في نصّه السابق من تناول النثر لأغراض الشعر وموضوعاته والتي كانت على مدى قرون حكرا على الشعر وحده، كالرثاء والهجاء والفخر ونحو ذلك، فكتبت فيها الرسائل الطوال .

ففي الهجاء على سبيل المثال كتب الجاحظ رسالة التربيع والتدوير في هجاء أحمد بن عبد الوهاب والتي يعتقد طه حسين أنّ ما من قصيدة بلغت ما بلغت ما بلغته هذه

[1]– ينظر مصطفى الشكعة، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية –كتاب النثر –، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط3، 1993م، ص 194.

[2]– ينظر عبد العزيز شبيل، نظرية الأجناس الأدبي في التراث النثري العربي – جدلية الحضور والغياب –، دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، 2001م، ص ص 226–227.

[3]– طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مؤسسة هنداوي، القاهرة، دط، 2012م، ص 50.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

الرسالة من الجودة والقوة والطول، فهي رسالة طويلة تقع في نحو خمسين ومائة صفحة تفنن خلالها الجاحظ في إبراز عيوب خصمه وتعداد مثالبه، في رسم كاريكاتوري ساخر قصد فيه السخرية الإضحاك، ومما جاء فيها قوله:

"وبعد فأنت –أبقاك الله– في يدك قياس لا يكسر، وجواب لا ينقطع، ولك حدّ لا يفل، وغرب لا ينثني، وهو قياسك الذي إليه تنسب، ومذهبك الذي إليه تذهب، أن تقول مالي أن يراني الناس عريضا، وأكون في حكمهم غليظا، وأنا عند الله تعالى طويلا جميلا، وفي الحقيقة مقدود مرشوق، وقد علموا – حفظك الله – أنّ لك مع طول الباد راكبا طول الظهر جالسا (...) ومن بديع ما أتيت أنّا لم نر مقدودا واسع الجفرة، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك، فأنت المديد وأنت البسيط، وأنت الطويل وأنت المتقارب، فيا شعرا جمع الأعاريض ويا شخصا جمع الاستدارة والطول"[1]، فعمل الجاحظ على تشويه صورة المهجو (أحمد بن عبد الوهاب) وجعله أضحوكة للأجيال، فنسب إليه كلّ نقيصة، مستندا في ذلك إلى آليات الحجاج القائمة على السخرية المشفرة، مقتبسا حججه من شتى أنواع الخطابات نحو، الخطاب الفلسفي، والخطاب الديني وكذا الخطاب الإيديولوجي، وعمل على صياغة هذا التنوع الفكري العجيب في خطاب أدبي متميّز يعكس قدرة الرجل الفنية وثقافته الموسوعية الغنية، فدعم بذلك قدرته الحجاجية ببراعته الأسلوبية أين كان للأسلوب دور كبير في جمالية الرسالة، وزيادة تأثيرها على المتلقي، لاسيما من خلال حسن اختيار البيان والبديع لتشكيل الصورة الفنية القائمة على السخرية الإضحاك وحمل القارئ على تصديقها والاقتناع بها. ولم يقف الأمر عند الهجاء، إنّما خاض الجاحظ في أغلب أغراض الشعر كالرثاء والفخر والوصف في براعة

[1]– الجاحظ، رسائل الجاحظ، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، 1964م، ج3، ص 57.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

واضحة أثرت النثر العربي بسمات أسلوبية جديدة جعلته يزاحم الشعر في أغراضه وموضوعاته بل وفي سماته وخصوصياته .

ولعل من أبرز نماذج التداخل بين الشعر والرسالة تلك الرسائل التي جمع فيها كاتبها بين الشعر والنثر في تلاحم وتعالق نحوي وأسلوبي شديد، ومن أمثلة ذلك ما أورده أبو القاسم الكلاعي صاحب إحكام صنعة الكلام عن المهلبي (أبو الحسن بن محمد):

"رأيته فصيح الإشارة لطيف العبارة
إذا اختصر المعنى فشربة حائـــم
وإن رام إسهابا أتى الفيض بالمدّ "[1]

و يجسد هذا النموذج الأبسط أنواع التداخل والذي مال ث تجاوز الجمع الآلي بين الخطابين الشعري والنثري، إلى خلق نمط مغاير من التعالق النّصي انتفت معه إمكانية الفصل بين الخطابين، ومن أروع نماذجه ما كتبه بديع الزمان الهمذاني إلى أبي بكر الخوازمي، عمل فيه على المراوحة بين الشعر والنثر ومنها قوله:

أنا، لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر
ومن الارتياح للقاءه كما انتفض العصفور بلله القطر
ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

[1]– الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تح رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1985م، ص148م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

فكيف نشاط الأستاذ – سيّدي – لصديق، طرأ إليه مما بين قصبتي العراق وخراسان، بل عتبتي نيسابور وجرجان وكيف اهتزازه لضيف رثّ الشمائل مخلق الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب

وهو –أيّده الله– وليّ إنعامه، بإنقاذ غلامه، إلى مستقريّ لأفضي له ما عندي إن شاء الله.[1]

إنّ التعالق النصي الحاصل بين الشعر والنثر في رسالة الهمذاني قائم على ورابط نحوية وأخرى أسلوبية خلقت نصّا جامعا تخطى حدود التجنيس والأشكال الشعرية والنثرية القائمة ورسّخ لممارسة إبداعية متميّزة، ويرى بعض النقاد أنّ الجمع بين المنظوم والمنثور من الكلام هو ما هيأ لظهور جنس أدبي جديد ألا وهو جنس المقامة الذي جاء تجسيدا لمشروع النص الجامع في فضاء النثر الفني تجاوز الشعرية الموزونة والمنثورة محققا بذلك حضورا مزدوجا لشعرية جامعة [2]، والنّص الجامع وفق هذا التصور هو ما استطاع الجمع بين خصائص الشعر والنثر معا، ما يكد أنّ الحدود الفاصلة المزعومة بين الشعر والنثر ما هي إلاّ حدود وهمية، فكلاهما كان حاضرا في الآخر، ولم نفصل عنه، وتأكّد العديد من النصوص النقدية القديمة أنّ النقد العربي القديم كان على وعي بهذه الحقيقة ومن ذلك ما يؤكده أبو حيان التوحيد من خلال ما أورد في كتابه الإمتاع والمؤانسة حين أوضّح أنّ "المنظوم فيه نثر من وجه، والمنثور فيه شعر من وجه، ولولا أنّهما

[1]– المصدر نفسه، ص 154.

[2]– ينظر شريف رزق، الأشكال النثر شعرية في الأدب العربي، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط1، 2017م، ص ص 89–90.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

يستلهمان هذا النعت، لما ائتلفا ولا اختلفا"[1] وعليه كان النقد العربي مؤمنا بالتجنيس والتصنيف كضرورة منهجية إلاّ أنّه كان على يقين من استحالة عزل أشكال الخطاب الممارسات الإبداعية ولعل ذلك ناتج عن التعمق والاستقراء الجيّد لواقع التجربة الإبداعية التي تثبت ذلك .

3–2 التداخل بين الرسالة والسرد:

يعدّ السرد من الأفعال اللصيقة بحياة الإنسان والتي اقتحمت عليه كلّ طرق التعبير وأجناسه، فما من جنس أدبي قديم أو حديث إلا وتفاعل مع السرد وآلياته، ، ولعل الرسالة من أكثر الأجناس الأدبية تقاطعا في الكثير من نماذجها الخالدة مع الفن القصصي، حيث عرف الأدب العربي القديم ما يمكن أن يصطلح عليه بالرسالة القصصية، وقد عدت رسالة الغفران لأبي العلاء المعري أكثر النصوص الترسلية تجسيدًا لمبدأ التداخل بين أجناس الكلام لاسيما القصة، وهذا النّص على أهميته الأدبية، خطاب متشابك، فيه من الأبعاد العقدية واللّغوية والتاريخية وكذا الفلسفية المذهبية، ما جعله محط عناية الباحثين في شتى المجالات، وسنحاول خلال بحثنا هذا تقصي الأبعاد الأجناسية في الرسالة، ومدى تجسيدها لمبدأ تداخل الأجناس الأدبية، لاسيما التداخل بين الرسالة والقصة، على اعتبار التقسيم الثنائي الذي قدمه المعري لرسالته، والتي كانت رسالة جوابية جاءت ردّا على رسالة ابن القارح حول مصير الزنادقة والملحدين، وقد اتخذ المعري من ابن القارح شخصية رئيسة لقصته، وقد نقل ياقوت الحموي من أخباره فقال "هو شيخ من أهل الأدب شاهدناه ببغداد راوية للأخبار حافظا لقطعة كبيرة من اللّغة

[1]– التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، شرح أحمد أمين، أحمد الزين ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دط، دت، ج2، ص 135.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

والأشعار، قؤوما بالنحو، وكان ممن خدم أبا علي الفارسي في داره وهو صبي، ثم لازمه وقرأ عليه على زعمه جميع كتبه وسماعاته"[1]، ولعل رسالته كانت سببا في ميلاد هذا النص المتميّز .

تحيل العتبة الأولى لنص المعري إلى نص ترسلي لا يبتعد في سماته الأسلوبية عن المتعارف عليه في فن الترسل، إلاّ أنّ القارئ ما أن يتجاوز العنوان حتى يقع على بنية نصية معقدة تتشابك فيها الخطابات والأجناس، ما جعل العديد من الدارسين يتردد في تصنيف هذا النّص بين القصة والرسالة والرحلة وحتى المسرحية، أم هي محصلة لتلك الأجناس جميعا، حيث تدرج بنت الشاطئ نص الغفران ضمن جنس المسرحية، في حين اعتبرها حسين الواد جماع عدد من القصص، بينما يعتقد الرقيق عبد الوهاب وهند بن صالح، أنّ قسم الرحلة في رسالة الغفران جماع أجناس، استعار من المسرح الحوار وصدامه ومن القصة الراوي وحيله، ومن القصيدة إيقاعها ومن المقامة أسجاعها ومن الخرافة عجيبها.[2]

هذا النّص الإشكالي قسّم كما سبق وذكرنا إلى قسمين، الأوّل (**قسم القصّة**) وهو عبارة عن رحلة خيالية إلى العالم الآخر أبطالها شعراء وأدباء من عصور مختلفة، و**شخصيتها الرئيسة** (ابن القارح)، وهي شخصية نامية متحركة تتفاعل إلى جانب عدد من الشخصيات من الإنس والجن والحيوان، في **بنية سردية** متكاملة .حيث يجد القارئ نفسه أمام جملة من **الأحداث** المتسلسلة والمرتبة ترتيبا كرونولوجيا منطقيا تسرد سردًا داخليا على لسان الشخصية الرئيسة، كما لا يغيب السرد الخارجي الذي نتلمسه من

[1]– ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م، ص 1974.

[2]– www.tunisia-sat.com تاريخ المعاينة: 2018/01/01م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

خلال الشروح التي يقدمها الكاتب وكذا الأوصاف المتعلقة بالشخصيات والأماكن، "فلما صرت إلى باب الجنة قال لي رضوان: هل معك من جواز ؟ فقلت: لا، فقال: لا سبيل لك إلى الدخول إلاّ به، (...) والتفت إلى إبراهيم صلى الله عليه فرآني وقد تخلفت عنه فرجع إلي فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة"[1]، ويمثل **الحوار** أحد أهمّ مكونات السرد في الغفران، وقد تراوح بين الحوار الداخلي والحوار الخارجي وتمحور حول أهمّ القضايا الأدبية والنقدية وكذا العقدية التي أراد المعري مناقشتها في رسالته، ويعدّ التساؤل العقدي "بم غفر الله لك؟" منطلقا لسائر أنماط التساؤلات والإشكالات الأخرى، أدبية ونقدية وفلسفية فقد بادر ابن القارح بطرح هذا التساؤل على العديد من الشعراء الذي لقيهم في الجنان، وقد كانت الشخصية الرئيسة والحوار متلازمان، فابن القارح شخصية رئيسة نامية تطورت ملامحها من خلال حوارات أجرتها مع سائر الشخصيات الأخرى "وينظر الشيخ في رياض الجنة، فيرى قصرين منيفين فيقول في نفسه: لأبلغنّ هذين القصرين فأسأل لمن هما؟ فإذا قرب إليهما رأى على أحدهما مكتوبا: هذا القصر لزهير بن أبي سلمى المزني، وعلى الآخر هذا القصر لعبيد بن الأبرص الأسدي، فيعجب من ذلك ويقول: هذان ماتا في الجاهلية لكن رحمة ربنا وسعت كلّ شيء وسوف أتلمس لقاء هذين الرجلين فأسالهما، بم غفر الله لهما ؟ فيبتدئ بزهير (...) بم غُفر لك وقد منت في زمان الفترة والناس همل لا يحسن منهم العمل ؟ فبقول كانت نفسي من الباطل نفورا، فصادفت ملكا غفورا ..."[2]، أجرت الشخصية الرئيسة في هذا المقطع السردي حوارا داخليا مع ذاتها وآخر خارجي وآخر مع زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي

[1]– المعري، رسالة الغفران، تح عائشة عبد الرحمان، دار المعارف، القاهرة، ط9، دت، ص ص 261–262.

[2]– المصدر نفسه، ص ص 182–183.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

والذي تخيل المعري أنّ الجنة كانت من نصيبه بسبب بعده ونفور نفسه من الباطل، ولعل مرجع هذا التصور ما امتاز به زهير من صدق ورزانة وتعقل وما جاء في شعره من حكمة ودعوة إلى السلام وإصلاح ذات البين، وغيرها من المعاني التي تتقاطع مع الفكر الإسلامي التوحيدي، ولعل أشهرها قوله:

يؤخِّر فيوضع في كتابٍ فيدَّخر ليومِ حسابٍ أو يعجَّلُ فينتقِم[1]

وانطلاقا من ذلك فقد جعل المعري المعاني الشعرية التي خاض فيها الشعراء في حياتهم الدنيوية المرتكز الأول في تحديد مصيرهم في الآخرة، فمن الشعراء من شفعت له أشعاره وأدخلته إلى الجنان ومنهم من رمت به في الهاوية "فيقول عبيد: أخبرك أنّي قد دخلت الهاوية، وكنت قد قلت في أيام الحياة:

من يسأل النّاس يحرموه وسائـــل الله لا يخيب

وسار هذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل ينشد ويخفف عني العذاب حتى أطلقت من القيود والأصفاد، ثم كرر إلى أن شملتني الرحمة ببركة ذلك البيت"[2].

إضافة إلى الشخصيات البشرية كان في الرحلة أنماط أخرى من الشخصيات من الحيوانات والملائكة والجن "والواقع أنّ لكل شخص في الرحلة قصته، بما في ذلك الحيوان، فللأسد قصته، وللذئب قصته، وللجني قصته، وحتى الحيّات فإنّ لها قصتها"[3]، وحتى الأمكنة والقصور كانت لها قصص وحيوات في رحلة ابن القارح، وهو ما يعكس

[1]– زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح وتقديم علي حسن عافور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م، ص 107.

[2]– المعري، رسالة الغفران، ص 178.

[3]– حسين الواد، البنية القصصية في رسالة الغفران، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 1988م، ص 44.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

عناية المعري بالفضاء المكاني والذي لا تقل أهميته السردية عن سائر العناصر الأخرى، وقد تراوح المكان في الرحلة بين المحشر والجنة والجحيم، وقد حددت هذه الأماكن بحدود فجعل لها مشارق ومغارب، ولها علو وسفول وفيها عتمة وإشراق، وقد استلهمت أوصافها من القرآن الكريم، وأخضعت للمعيار الإنساني ما جعل المكان في الرحلة خاضعا لمعيارين أحدهما ديني والآخر فني، ومن ذلك جعل الجنة في علو والنار في سفول في قوله "فيطّلع فيرى إبليس – لعنه الله – وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل (...) فليت شعري ما فعل عمرو بن كلثوم؟ فيقال: ها هو تحتك، إن شئت أن تحاوره فحاوره"[1]، فالمكان في بعديه الديني والفني ارتبط فيه العلو بالقيم العالية الرفيعة، والسفول بما دون ذلك، وللمكان قاطنون بعضهم خلق في الدنيا ونقل إلى الجنان كالشعراء والنحاة واللغويين ... ومنهم من خلق في الجنة من الملائكة والجن ... ومن أوصاف المكان في رحلة المعري أنّ به مدائن وبقصور بعضها للأنس وأخرى للجن والعفاريت" فإذا هو يسير بمدائن ليست كمدائن الجنة ولا عليها النور الشعشعاني، وهي ذات أوحال وغماليل، فيقول لبعض الملائكة: ما هذه يا عبد الله ؟ فيقول هذه جنة العفاريت."[2]

قامت رحلة أبي العلاء على السرد المتصل الخاضع للزمان التراتبي المتتابع، مع استرجاع في بعض المقاطع السردية، حيث بدأ حاصر القص من دخول ابن القارح إلى الجنة ليسترجع لاحقا كيفية دخوله ولقاء إبراهيم صلى الله عليه، ويبقى الزمان في الرحلة نسبي ذلك أنّ الرسالة تبدو وكأنّها مجردة من الزمن لارتباطها بالحياة الدائمة، فقد حاول المعري وصف الجنة وساكنيها بأوصاف ثابتة لا تتغير وإن تقادم عهدها.

[1] – المصدر السابق، ص ص 309–310.

[2] – المصدر السابق، ص 290.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

خضع قسم الرحلة في رسالة الغفران لنظام سردي محكم جعل منه نسيجا سرديا توفر على معايير وخصائص الفعل السردي من حدث وشخصيات وزمان ومكان، وقد خرجت هذه البنية السردية من رحم الرسالة في التحام وتداخل لم يطغ فيه جنس على آخر، وإن كانت القيمة الفنية للرسالة (القسم الثاني) تتراجع أمام القصة وجماليتها، وعلى الرغم من ذلك يبقى للرسالة كلّ الفضل في ميلاد هذه القصة الخالدة التي كانت معرضا لتداخل الأجناس .

3–3 التداخل بين الرسالة والسيرة:

يصطدم الباحث في فن السيرة بعدد كبير من التعاريف التي يحاول كل منها وضع تصور واضح ودقيق لهذا الفن، فما من دراسة أو بحث يخوض في هذا الموضوع إلاّ ويجتهد صاحبه في وضع تعريف له وفق مقاييسه ومرجعياته، ما أوقعه في غموض كبير، التبست معه الحدود الفاصلة بينه وبين سائر الأجناس الأخرى .

ويعزو بعض الدارسين تعدد تعاريف فن السيرة وتباينها إلى "سببين رئيسين: الأوّل يتعلق بطبيعة هذا الجنس الزئبقية، والثاني يتعلق بتنوع المقاربات التي طبقها عليه الدارسون والنقاد"[1]، فالحدود الضبابية بين فن السيرة وبعض أجناس الأدب الأخرى، كالرواية والرسالة والرحلة أوجدت صعوبة كبيرة في ضبط خصائصه وسماته التي تميّزه عن غيره.

إلاّ أنّ ذلك لا ينفي ضرورة تبني تعريف محدد لجنس السيرة حتى يتسنى لنا مقاربة تداخله مع أدب الترسل الذي يعدّ هدفنا الأوّل من هذا البحث .

[1]– صالح معيض الغامدي، كتابة الذات – دراسات في السيرة الذاتية –، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2013م، ص10.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

جاء في لسان العرب لابن منظور "السّير الذهاب، سار يسير سيرا وتسيارا ومسيرة وسيرورة (...) والسّيرة الضرب من السّير، والسُيرة الكثير السير، والسّيرة: الهيئة، وفي التنزيل العزيز ﴿سَنُعيدُهَا سيرَتَها الأُولَى﴾، وسيّر سيرة: حدّث أحاديث الأوائل"[1]، ولعل هذا المعنى الأخير أقرب إلى ما هو متعارف عليه حول فن السيرة، والذي يخوض فيه الكاتب في حياته أو حياة شخصية ما، ويعرض لمنجزاتها وسيرة حياتها.

وعرّفت السيرة اصطلاحا على أنّها "نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والإتباع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته"[2]، فالسّيرة وفق هذا التعريف تجمع بين البعد التاريخي والأسلوب الفني القصصي، فكاتب السيرة ينطلق من خلفية تاريخية حول شخصية صاحب السيرة تتمثل في فيما يجمعه من وقائع وأحداث ومحطات، إضافة إلى عصره ومجمل الظروف المحيطة به، ثم يعمد إلى صياغة هذه المادة التاريخية في أسلوب سردي حكائي بطريقة فنية تضمن أدبيته وتجعل منه جنسا أدبيا بسمات أسلوبية خاصة.

وينقسم جنس السّيرة إلى نوعين: السّيرة الذاتية والسّيرة الغيرية، يتناول كاتب السيرة في النوع الأوّل حياته الخاصة بالبحث والاستقصاء، أين يتخذ من محطات حياته وتجاربه موضوعا للكتابة، وقد عرفها **فيليب لوجون** على أنّها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية أو على تاريخ شخصيته بصفة خاصة"[3]، بينما تتخذ السيرة الغيرية حياة شخص ما موضوعا

[1]– ابن منظور، لسان العرب، مج04، مادة سير، ص 390.

[2]– جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، ط1، 1984م، ص 143.

[3]– فيليب لوجون، السيرة الذاتية– الميثاق والتاريخ الأدبي–، ترجمة عمر حلي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1994م، ص10.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

لها، وقد عرّفها **عبد اللطيف الحديدي** في كتابه فن السيرة على أنّها "بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحاته حياة صاحب السيرة أو الترجمة"[1]، فيقدّم بذلك إنجازاته وأهم محطات حياته في عرض سردي تاريخي.

ولعل السيرة الذاتية هي النوع الأدبي الذي يتداخل في بعض سماته وخصائصه مع فن الترسّل، لاسيما مع تلك النصوص الترسلية التي تحتوي على معلومات حول شخصية الكاتب وتفاصيل حول حياته .

3–3–1 التداخل بين الرسائل الإخوانية والسيرة الذاتية:

إذا كانت الرسائل الديوانية هي الرسائل ذات الطابع الرسمي، فإنّ الرسائل الإخوانية هي ما خلت من كلّ رسمية، وهو رسائل تتناول موضوعات وجدانية، ذات صلة بحياة الكاتب الخاصة، كالتهنئة والتعزية والعتاب والشكوى والصداقة والاعتذار وما شابه ذلك، ولعل الطابع الشخصي والذاتي الذي اتسمت به هذه الرسائل هو ما جعلها قريبة من السيرة الذاتية وأعطى بذلك إمكانية التقاطع بينهما، ومن أهم النماذج التي مثلت لهذا التداخل الخفي بين الرسالة الإخوانية السيرة الذاتية رسالة **ياقوت الحموي** إلى **أبي الحسن علي بن يوسف القفطي**، والتي أوردها بعض ما عاشه وعاناه في حياته لاسيما في رحلته إلى خوارزم بعد اجتياح المغول لها ومنها قوله:

"وهيهات مع حرفة الأدب، بلوغ وطر أو إدراك أرب، مع عبوس الحظّ وابتسام الدهر الفظّ، ولم أزل مع الزمان في تفنييد وعتاب، حتى رضيت من الغنيمة بالإياب،

[1]– عبد اللطيف الحديدي، فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث، دار السعادة للطباعة، القاهرة، ط 1، 1996م، ص 67.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

والمملوك مع ذاك يدافع الأيام ويزجيها، ويعلّل العيشة ويرجيّها، متلفعا بالقناعة والعفاف مشتملا بالنزاهة والكفاف، غير راض بذلك السّمل، لكن مكره أخوك لا بطل، متسليا بإخوان قد ارتضى خلائقهم، وأمن بوائقهم، عاشرهم بالألطاف، ورضي منهم بالكفاف، لا خيرهم يرتجى، ولا شرهم يتقى"[1]

فهذا المقطع من الرسالة يشبه إلى حد بعيد فن السيرة، حيث ذكر الكاتب حرفته (الأدب)، ووضعه الاجتماعي والمادي (مع عبوس الحظّ وابتسام الدهر الفظّ) كما ذكر صحبه وخلانه ومدى صدقهم وطيب معاشرتهم (لا خيرهم يرتجى ولا شرّهم يتقى)، فوصف الكاتب الدقيق لحياته، إضافة إلى الطابع الشخصي الذي طبع هذه الرسالة جعلها تتداخل في بعض خصائصها مع فن السيرة، غير أنّ أبرز الفروق بين الجنسين يكمن في الفترة الزمنية التي تؤرخ لها السيرة والتي عادة ما تكون أطول من الفترة الزمنية التي تتناولها الرسالة الإخوانية التي تؤرخ لحادثة معينة، فتكون بذلك السيرة الذاتية ذات طابع تاريخي، بينما تتخذ الرسالة الإخوانية الطابع الآني .

3–3–2 التداخل بين الرسائل الأدبية والسيرة الذاتية:

عدّ الدكتور شوقي ضيف الرسالة الأدبية تطورا أسلوبيا لفن الرسالة الإخوانية ذلك أنّ كلا هما تخوض في خصال النفس الإنسانية وتصوّر أهواءها وما يجب أن تكون عليه من المحاسن والصفات[2]، إلاّ أنّ هذا النوع من الرسالة كان أقرب إلى التداخل مع السيرة الذاتية نظرا لما هو عليه من الفنية والأدبية، على الرغم من المعلومات الشخصية

[1]– القفطي، انباه الرواة إلى أنباه النحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1982، ج4، ص ص 91–92.

[2]– ينظر شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط8، دت، ص ص 502–505.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

التي يمكن أن يدرجها الكاتب قد تتوارى أمام عنايته بالاقتباس والنقول الشعرية والنثرية إلاّ أنّ ذلك لا يلغي انطلاق الكثير من كتاب الرسالة الأدبية من ذواتهم في التعبير عن موضوعاتهم، فالكاتب مهما بلغ من الموضوعية والقدرة على الابتكار تبقى تجاربه الذاتية مادته الخام التي يستقي منها أغلب كتاباته، ومن أكثر النماذج الذي تجسّد هذه الظاهرة رسالة **الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي** .

تؤرّخ رسالة الصداقة والصديق للفترة الزمنية الممتدة بين سنتي (371هـ–400هـ)، ضمنها التوحيدي عددا هائلا من الشواهد والروايات حول الصداقة وفلسفة السلوك الإنساني، إلاّ أنّ هذه الرسالة تعكس جزءا كبيرا من حياة الكاتب ونظرته للحياة من خلال التجارب التي مرّ بها، لاسيما تجارب الصداقة والعداوة، وما يعكس ذاتيته في هذه الرسالة التقسيم الخاص الذي قدمه لفئات المجتمع، ومكانة الصديق عند كلّ فئة " أمّا الملوك فجلوا عن الصداقة، لذلك لا تصحّ لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها، وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر (...) أما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم (...) أمّا التناء وأصحاب الضياع فليسوا من هذا الحديث في عير ولا نفير، أمّا التجار فكسب الدوانيق سدّ بينهم وبين كلّ مروءة (...) أمّا أصحاب الدين والورع فعلى قلتهم فربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى (...) أمّا الكتاب وأهل العلم فإذا خلوا من التنافس والتحاسد (...) فربما صحّت لهم الصداقة"[1] .

وفي الرسالة مواضع عديدة تدلّ على انطلاق الكاتب من ذاته في مناقشة هذا الموضوع، ومن ذلك وصفه لحاله مع زمانه وخلانه "ومن العجب أنّا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة (...) وأنكر عليّ التطويل والتهويل بهذا (...) لأنّك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك، وذلك لعلمك بحالي، واطلاعك

[1]– التوحيدي، رسالة الصداقة والصديق، تحقيق الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ط1، 1964م، ص 04.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

بداخليتي"[1]، فالمتمعن في الرسالة يدرك أنّ الكاتب وإن لم يصرح بتجاربه الخاصة فيها إلاّ أنّ ذاتيته واضحة فيما قدمه من شواهد وآراء في الصداقة والصديق الحق، وبتلك السمة تداخلت الرسالة الأدبية بالسيرة الذاتية، هذا التداخل أعطى النصوص الترسلية تميّزا وجمالية .

ومن خلال ما تقدّم نخلص إلى أنّ ظاهرة التداخل بين أجناس الكلام ليس وليدة الأدب المعاصر أو بالأحرى الرواية المعاصرة، ولا هي معطى من معطيات الحداثة والتجريب، وإنّما لها جذور وإرهاصات لاسيما في الأدب العربي القديم الذي عرف أشكالا مختلفة من التقاطع والتداخل، وقد كان أدب الترسل أحد أهمّ الأجناس الأدبية قبولا لهذا المبدأ، حيث ألفيناه في تناغم مع عدد من الأجناس الأخرى خاصة الشعر بأغراضه الغنائية المخالفة، وكذا القصة أو الفعل السردي عموما، وصولا إلى جنس السيرة في نوعها الذاتي خاصة.

الخاتمـــة:

من خلال ما سبق نخلص إلى جملة من النتائج أهمها:

- الجنس الأدبي معيار تصنيفي يسعى إلى تصنيف أشكال الخطاب وفق مقاييس مخصوصة.
- الجنس أعمّ من النوع، فالجنس يضمن جملة من الأنواع متفقة في سمة جوهرية وتختلف في سمات فارقة.
- مرّت نظرية الأجناس الأدبية في الشعرية الغربية بعدة مراحل بدءا بصفاء الأجناس مع أرسطو وصولا إلى إلغاء مبدأ الجنس مع نقاد ما بعد الحداثة.

[1]– المصدر نفسه، ص 04.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

- عرف الأدب العربي القديم أشكالا مختلفة من التداخل الأجناسي أهمها التداخل بين الشعر والقصة، وكذا التداخل بين الشعر والخطبة.
- مرّ فن الترسل في الأدب العربي بمراحل مختلفة أثناء تطوره من طور الإملاء إلى طور الإنشاء.
- يعد فن الترسل من أكثر الأجناس الأدبية العربية استجابة لمبدأ التداخل والتفاعل، من خلال تداخله مع سائر أجناس الكلام الأخرى كالشعر والخطبة وكذا السيرة الذاتية.
- اقتحم فن الرسالة في العصر العباسي على الشعر موضوعاته وأغراضه، فتلون بألوان الشعر وتداخل معه في تفاعل جمالي متميز.
- إنّ الذاتية التي تميّزت بها كل من الرسائل الإخوانية والأدبية مكنت فن الرسالة من التداخل مع فن السيرة الذاتية.
- تعد رسالة الغفران لأبي العلاء المعري نصا إشكاليا مزج بين أجناس أدبية مختلفة لاسيما بين الرسالة والقصة، فتوفر على عناصر القصة كاملة دون أن يفقد خصائصه الترسلية، فحقق بذلك معادلة التداخل الفني والجمالي الذي يعطي النّص تميّزا وفرادة.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

– التوحيدي، رسالة الصداقة والصديق، تحقيق الكيلاني، ط1، دمشق، دار الفكر، 1964م.

– الجاحظ رسائل الجاحظ، تح عبد السلام محمد هارون، دط، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1964م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

– القفطي انباه الرواة إلى أنباه النحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة، دار الفكر العربي، 1982م.

– المعري، رسالة الغفران، تح عائشة عبد الرحمان، دط، القاهرة، دار المعارف.

المراجع:

– إحسان اللواتي، إشكالية النوع السردي، مؤتمر النقد الثاني عشر، الأردن، جدارا للكتاب العالمي، 2009م.

– أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ط1، مصر، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، 1923م.

– أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، ط1، مصر، مطبعة مصطفى بابي الحلبي .

– تأبّط شرًا، الديوان، ط1، تح علي ذو الفقار شاكر، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1984م.

– تودوروف، الأجناس الأدبية دط، تر نجوى الرياحي القسنطيني، المجلة العربية للثقافة، ع 28، 1995م .

– التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، دط، شرح أحمد أمين، أحمد الزين، بيروت، منشورات المكتبة العصرية.

– التهانوي (دت) كشّاف اصطلاحات الفنون، دط، بيروت، دار صادر.

– جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ط1، لبنان، دار العلم للملايين، 1984م.

– جيرار جينيت، مدخل لجامع النص ط2، تر عبد الرحمان أيوب، الدار البيضاء، دار توبقال، 1988م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

– حسين الوادالبنية القصصية في رسالة الغفران، ط3، تونس، الدار العربية للكتاب، 1988م.

– روينيه ويليك، نظرية الأدب، دط، تر عادل سلامة، المملكة العربية السعودية، دار المريخ، 1992م.

–أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، ط1، تح علي محمد البجاوي، مصر، دار النهضة، 1981م.

– زهير بن أبي سلمى، الديوان، ط1، شرح وتقديم علي حسن عافور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1988م.

– شريف رزق، الأشكال النثر شعرية في الأدب العربي، ط1، القاهرة، مركز الحضارة العربية، 2017م.

– شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ط8، القاهرة، دار المعارف.

– صالح معيض الغامدي، كتابة الذات – دراسات في السيرة الذاتية –، ط1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2013م.

– عبد العزيز شبيل، نظرية الأجناس الأدبي في التراث النثري العربي – جدلية الحضور والغياب –، ط1، تونس، دار محمد علي الحامي، 2001م.

– عبد اللطيف الحديدي فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث، ط1، القاهرة، دار السعادة للطباعة، 1996م.

– طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ط1، القاهرة، مؤسسة هنداوي، 2012م.

– الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ط2، تح رضوان الداية، بيروت، عالم الكتب، 1985م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:03 السنة:2019 الصفحة: 331–361 تاريخ النشر:17–12–2019

– فيليب لوجونل، سيرة الذاتية– الميثاق والتاريخ الأدبي–، ط1، ترجمة عمر حلي، بيروت، دار النهضة العربية، 1994م.

– لا بي سي فينست، نظرية الأنواع الادبية، ط1، تر حسن عون، الإسكندرية، منشأة المعارف.

– لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط1، بيروت، مكتبة لبنان.

– مصطفى الشكعة، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية –كتاب النثر –، ط3، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1993م

– مها القصراوي، نظرية الأنواع الأدبية في النقد الأدبي – نظرية الرواية نموذجا– ط1، الأردن، مؤتمر النقد الثاني عشر، 2009م

– ابن منظور، لسان العرب، ط1، بيروت، دار صادر.

– ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ط1، تح إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1993م.

– www.tunisia-sat.com